مقدمة

كنت دائما أحلم وأنا أخوض غمار البحث الأدبي في نطاق السرديات، ودراسات النص النثري أن أكتب عن زمرة من أدبائنا الكبار ومفكرينا الثقال أصحاب حركة التنوير والتأثير في العالم العربي في القرن الفائت، أمثال طه حسين والعقاد والمازني ونجيب محفوظ، على أن تكون فكرة الكتابة عنهم من زاوية البحث التحليلي المعاصر، غير التقليدي ولا المُكرر، وذلك لاعتبار مهم، وهو أن معظم أعمال هؤلاء الكبار قد قتلت بحثا، وجل كتاباتهم قد وقف أمامها عشرات الباحثين والدارسين والشغوفين بهم، من وجهتي التحليل والقراءة، إلا أنني كغيري من الباحثين المعاصرين، لمست في كثير من الدراسات البحثية حول أدب العقاد وطه حسين والمازني مسحة التكرار، وسياق التحليل الكلاسيكي الجمعي، وأقصد بالجمعي هنا .. التحليل الشمولي الذي ينظر للعمل من كافة وجوهه وزواياه، دون التقيد بعنصر واحد من عناصر التميز لفن طه حسين والعقاد والمازني ومحفوظ، رغم أن أعمال هؤلاء الكبار تظل دائمًا وبصفة عامة ومستمرة في حاجة مُلحة وماسة لقراءتها من جديد، ولذلك أردت من خلال هذا الكتاب أن أطل على أدب واحد من رموز عالمنا العربي الأدبية والفكرية والموسوعية، ألا وهو الدكتور طه حسين، لا من أجل الوقوف على عوالمه الفكرية والأدبية والموضوعية والجدلية وقراءتها على أكثر من وجه من الوجوه فحسب، فهو كاتب شمولي بطبيعة الحال، ولكن لتفسير خواصه الفنية ، وأدوات صياغاته، وطبيعة نسيجه اللغوي الذي بدا فيه مراوغًا إلى أبعد حد، ودليلنا في ذلك ما أنتجه من روايات كـ (الحب الضائع، وشجرة البؤس، صوت باريس، ودعاء الكروان .. إلخ) وما حوّله إلى روايات وقصص كـ (على هامش السيرة، والشيخان، والأيام،

وأديب) حيث بدا في كل هذه الأعمال شغوفا بغواية الحكي والقص، والسرد الروائي الطويل، حتى عندما كتب وأبدع (مرآة الإسلام) و (الوعد الحق) مال إلى صنعة الحبكة الروائية بصفة عامة، وهي صنعة مردودة إلى طاقات السرد المتولدة - في الأصل - في نفسه، ومن نفسه، وإلى الأبعاد الثقافية التي شكلت شخصيته الفريدة، بكامل مؤثراتها المصرية والأجنبية، وإلى تراكمات التراسل اللغوي النابعة من ذاته الساردة .

وغواية الحكي عند طه حسين .. ما هي إلا مُحاولة منه في كثير من الأحيان إلى الهروب من الواقع السياسي في زمنه، ومن اشتباكاته السياسية في مطلع حياته، ورفضه لأوضاع كثيرة داخل وطنه إبان دراسته في الأزهر، وجدلياته مع العقاد وغيره، ولذا تفرغ طه حسين كثيرا للإبداع في النطاق الروائي والسيري من زاوية الهروب من محيط الخلافات التي عايشها عقب تأليفه لكتابه المهم (في الأدب الجاهلي)، وما ترتب عليها من مزايدات وردود فعل ونقاشات دفعته إلى الهروب إلى المحيط الروائي والسيري والقصصي، وقد يكون الهدف من ذلك تصحيحًا لبعض الأوضاع بينه وبين ذاته، أو يكون دافعه هو تفجير أكبر طاقة روحية يمكن للأدب أن يستفيد بها ويضيء منها الحياة في العصر الحديث، ويعيد تفسير الكون والتاريخ في القرن العشرين في مصر والعالم العربي من رؤية جديدة على حد تعبير بعض نقاد طه حسين .

ولذا جاء هذا الكتاب ليعايش – في فصله الأول – تجربة طه حسين في السرد الروائي في نطاق ما أنتجه من كتب السير، وتحديدا في كتابه الطويل (على هامش السيرة) الذي تجاوزت صفحاته ستمائة صفحة، على ثلاثة أجزاء، حاول طه حسين فيها أن يخترق السيرة النبوية الشريفة ويستنبطن خلفياتها ودروبها ومسالكها ومراحلها المختلفة، وأن

يعايشها ويحاكي شخوصها وزمانها ومكانها، وهو ما قاده في النهاية إلى التيه في عوالم (ذوبان النوعية) فبات حائرا بين سياقات السيرة، وحبكات الرواية ولوازمها، إلى أن مالت السيرة في النهاية إلى الأبعاد الروائية بكامل ثوابتها الموضوعية والفنية والإجرائية، وهو ما نحاول أن نصل إليه في هذا الكتاب..

وبعد مُعايشتي لتجربة طه حسين في إنتاج الروائية، رأيت نفسي أرغب في السباحة في فضاء العالم الروائي من منفذ الجدة في اكتشاف رؤى الإبداع فيه، حتى ولو كانت هذه الجدة عند رموزه الكبار ومبدعيه في الأصل، أمثال نجيب محفوظ حارس الرواية العربية الأول – رحمه الله – وذلك من رغبتي في البحث عن خط نادر برع فيه محفوظ بشكل فارق وجديد ومميز، ألا وهو صناعة الدراما المرئية والمُشاهدة بحنكة فنية خاصة لا يدركها إلا من تعامل مع دراما المشهد المرئي، من واقع الكتابة له، ومن خلال أصوله الروائية المُنحازة إلى هذه الصناعة، ومعروف لنا جميعا أن نجيب محفوظ أبدع في الكتابة إلى السينما في مطلع حياته، بصورة قد ميزته عن غيره من كتاب السينما والدراما التلفازية، وذلك لاعتبارات موهبته في القص والحكي الروائي، والتي سحبت فنونه وقدراته إلى عالم المناخ الدرامي السينمائي والتلفازي، وسنحاول من خلال الفصل الثاني أن نقف حيال هذه الإضافة السردية الجديدة في عالم نجيب محفوظ الروائي والقصصي .

كما أردت من خلال هذا الكتاب أن أخوض غمار تجربة جديدة في نطاق الدراسات المعاصرة، والبحث في كل إبداع يُشكل إضافة لمجموع الحركة الأدبية المبتكرة والجديدة، فالتفت إلى تجربة الشاعر الإسكندري المعاصر – أحمد فضل شبلول – صاحب فكرة الخطاب

الشعري للظواهر التكنولوجية والاستكشافية والحاسوبية المعاصرة، من زاوية التأثر بها ومعايشتها على وجه من وجوه الجدة والاختلاج والتحليل الواقعي المعاصر، ورأيتها تجربة جديدة بالفعل، وهي تجربة تستحق الدراسة، والوقوف حيال عالمها الخاص والمبتكر.

ومن نفس المنطلق وقفت في الفصل الرابع أمام تجربة فريدة في النسج الرومانسي الشعري المعاصر، تشكل حركة دفع إلى الأمام في التصور الشعري للرومانسية الجديدة ولفنونها، صاحبها الشاعر والعالم الكبير الأستاذ الدكتور محمد زكي العشماوي، أستاذ الأدب العربي بجامعة الإسكندرية، والذي ابتكر لونا مزجيا جديدا في نطاق إبداعه الرومانسي، أردت أن أقف أمامه من وجهتي التحليل والتأمل، لأكتشف عالما رومانسيًا معاصرًا فارقا، تدفعه وتحركه عوالم صوفية خيالية ترتكن إلى الواقع المتخيل مرة، وإلى سحابات وامضة خافية في مرات أخرى.

وفي الفصل الأخير من هذا الكتاب عدت إلى قضية قديمة، سحبني إليها، ودفعني لبحثها، أستاذي المغفور له الدكتور عثمان موافي – أستاذ النقد الأدبي المعاصر – في إحدى مناقشاتنا وطلب مني وقتها أن أشرح رؤيتي لمنظور منهجه النقدي في نطاق تحليله النفسي لبعض الأعمال المعاصرة، والرؤى التي اعتمد عليها ومحور الخلاف فيها، خاصة أن الدكتور موافي كان يؤمن إيمانا كاملا بأن المنهج النقدي النفسي هو أصدق المناهج النقدية الحديثة والمعاصرة في التعامل مع طبيعة النص الأدبي وموارده التكوينية والخلفية، ولذا أردت من خلال هذه الدراسة الوقوف من زاويتي التأصيل والبحث في تجربة الدكتور عثمان موافي في هذا النطاق، ومحاولتي نقاشه على نسيج هادئ.

وأسأل الله عز وجل أن يوفقني فيما ذهبت إليه من رؤى تحليلية وفنية ولغوية تؤسس لمحور التعامل مع النص الأدبي المعاصر الذي وقفت حياله، وعايشته، وأن يكون هذا الكتاب قد ترك مجرد فكرة لطرق أبواب البحث عن المعادل الحقيقي لوظيفة الأدب وأهمها المعادل الأخلاقي والجمالي والذوقي .. والإنساني.

د . بهاء عبد الفتاح حسب الله

لوران - الإسكندرية - صيف 2014 م

obeikandl.com